

مداخلة للمشاركة في الملتقى الوطني:
التكامل المعرفي والمنهجي بين علوم اللغة والدراسات القرآنية
يومي 27 من نوفمبر 2023 م ؛ بجامعة باتنة1 الحاج لخضر – ولاية باتنة

أ.د/ عبد العليم بوفاتح

- التخصص : البلاغة وعلوم اللسان
- الرتبة : أستاذ التعليم العالي
- مؤسسة العمل : جامعة عمار ثليجي بالأغواط

التشابه اللفظي في القرآن الكريم .. سياقاته وأسراره البلاغية
(دراسة لنماذج تطبيقية)

ملخص:

يقصد بالمتشابه اللفظي في القرآن الكريم، تلك الآيات التي تكررت في القصة الواحدة من قصص القرآن أو موضوعاته المتنوعة، متجلباً في ألفاظ متشابهة، وصور وفواصل متعددة، وأساليب متنوعة، تعريفاً وتنكيراً وتقديماً وتأخيراً، وإفراداً وجمعاً، وذكرًا وحذفًا، وإيجازًا وإطنابًا، وإبدالًا وإدغامًا، فهم يشمل التراكيب والألفاظ ولا يكون إلا لغرض بلاغي، وسر من اسرار التعبير القرآني، لا يدركه إلا من أوتي بُعْدًا في النظر مع حسن اطلاع على خصائص الأسلوب القرآني وما يتميز به من بديع صياغة ألفاظه وإعجاز بلاغة نظمه..

هذا، وإنّ النظر في الفروق الدلالية بين تراكيب القرآن الكريم وألفاظه هو من أهم المباحث التي ينبغي الوقوف عليها لاستجلاء الأسرار البلاغية الكامنة فيها، إذ تأتي هذه الفروق اللفظية والتركييبية مناسبة تمام المناسبة للمعاني المراد التعبير عنها، فلا يؤدي هذه المعاني والدلالات إلا ما أختير لها من ألفاظ أو تراكيب، وهو ما لا يتحقق بصورة كلية ودقيقة إلا في اسلوب القرآن الكريم، وذلك نابع من إعجازه..

وقد تم التركيز في هذه الورقة على نماذج متنوعة لبعض الألفاظ والتراكيب المتشابهة، ومقابلة بعضها ببعض، لبيان الفروق الدلالية بينها والأسرار البلاغية المستفادة منها.. فتم التطرق إلى بعض الظواهر الصرفية والصوتية، فضلا عن بعض النماذج التركييبية للوصول إلى الهدف من ذلك، ألا وهو الوقوف على بعض الأسرار البلاغية من خلال النظر في مختلف السياقات التي وردت فيها هذه النماذج.. مع علمنا أنّ هناك نماذج كثيرة من هذا القبيل في القرآن الكريم، بحيث لا يمكن إحصاؤها أو الإلمام بها؛ لكننا أردنا أن نشير إلى ظاهرة التشابه بمختلف صورها، والوقوف على بعض أسرارها البلاغية..

نص المداخلة:

توطئة: القرآن الكريم ودلالات اللفظ العربي:

لا شك أنّ اللفظ العربي له من الفصاحة والعدوبة والجزالة ما يرتقي بكلام العرب إلى أعلى المراتب في اتساق نظمه وعمق دلالاته وحُسن بلاغته؛ وإذا تعلق الأمر باستعمال هذا اللفظ في النظم القرآني كان ذلك أدعى إلى الإعجاز، وهو ما جعل بعض العلماء يعنون عناية كبيرة بالبحث في هذا الجانب والوقوف على أسرار.. فقد أشار بعضهم إلى ثلاث جهات في إنشاء الكلام، هي " لفظ حاصل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه."¹

لقد كان للقرآن الكريم الأثر البارز في إثراء اللغة العربية وتوسيع مجالات استعمالها، بما أضاف إليها من الألفاظ والتراكيب الجديدة بما تحمله من دلالات، فضلاً عمّا أضفى عليها بنظمه الإعجازي من عمق في الدلالة ودقة في

¹ - الخطابي: بيان إعجاز القرآن: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.ص24

الوصف والتعبير؛ وبهذا اكتسبت العربية سناً كبيراً استمدت منه بقاءها واثراءها ونضارتها بين اللغات.. وكان ذلك دافعاً للباحثين قديماً وحديثاً كي يُقبلوا عليه دراسةً وتحليلاً، فتناولوه موضوعاً ومصطلحاً..

وينزول القرآن الكريم طراً على اللغة العربية تغيير كبير كان من أبرز مظاهره حدوث اتساع وتشعب في دلالات الكثير من ألفاظها، ضمن ظاهرة التطور الدلالي لهذه الألفاظ؛ كما عرفت بعض الألفاظ تجدداً في سياقات استعمالها لم تعهده من قبل..

وفي هذا الشأن كان الاهتمام بألفاظ القرآن الكريم وتميز دلالاتها من الأسباب المباشرة في ظهور ما أصبح يطلق عليه (المصطلح القرآني). والمصطلح القرآني هو لفظ يحمل معنيين: أحدهما أصلي خارج السياق القرآني؛ والثاني اصطلاحي متجدد يخضع للسياق القرآني، سواء أوجدت علاقة بين المعنيين أم لم توجد.

بلاغة التعبير القرآني في ألفاظه وتراكيبه :

يتميز التعبير القرآني بعدة مزايا في ألفاظه وتراكيبه، منها دقة اختيار الألفاظ إن في ذاتها وفي تعالقها فيما بينها، مع تناسبها مع مختلف السياقات التي ترد فيها؛ ومنها انتظام تراكيبه في انسجام بديع وتناسق رفيع لا يوجد إلا في النظم القرآني الذي ترتقي فيه الكلمة من دلالتها المعجمية البسيطة إلى دلالات أوسع وأرحب يتحقق بها الإعجاز في ألفاظه كما يتحقق في نظمه ومعانيه، فضلاً عما يتميز به من جهة جرسه وإيقاعه وماله من أثر في السمع . وبهذا الانسجام التكاملي بين ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه صوتاً ودلالةً وبلاغةً وفصاحةً وجزالةً وعدوبةً تتجلى درجات الإعجاز في التعبير القرآني في بلوغ المقاصد بما يتسق مع مختلف السياقات.. وقد أشار بعضهم إلى مزايا الألفاظ القرآنية، وجمعها بين العذوبة والجزالة بحسب مقامات الكلام وسياقاته، وهذا الجمع بينهما وجه من وجوه الإعجاز البلاغي في نظم القرآن الكريم؛ فجزالة اللفظ تتجلى في ذكر الحساب، والعقاب والميزان والصراف والموت وما كان في هذا السياق..، وكل ذلك من غير وعورة أو وحشية؛ وأما عذوبة اللفظ ورقته فتتجلى في ذكر حُسن الجزاء والثواب والعفو والغفران وما أعده الله لعباده من أعلى الدرجات في جنان الخلد؛ وهذا الجمع بين الجزالة من جهة والعذوبة والرفقة من جهة أخرى في ذات الألفاظ، يُعدّ من وجوه الإعجاز كما أشار إلى ذلك الزركشي مبيناً جانباً من إعجاز التعبير القرآني في "جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة، وهما كالمضادين، لا يجتمعان غالباً في كلام البشر، لأن الجزالة من الألفاظ التي لا توجد إلا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة، والعذوبة منها ما يضادها من السلاسة والسهولة. فمن نحو الصورة الأولى فإنما بقصد الفخامة والروعة في الأسماع، مثل الفصحاء من الأعراب، وفحول الشعراء منهم. ومن نحو الثانية قصد كون الكلام في السماع أعذب وأشهى وألذ، مثل أشعار المخضرمين ومن داناها من المولدين المتأخرين. وترى ألفاظ القرآن قد جمعت في نظمه كلتا الصفتين. وذلك من أعظم وجوه الإعجاز" 1

ويعلق ابن الأثير على خواتيم سورة الزمر، من الآية 68 إلى الآية 75. في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي قِيَامٍ ۚ يَنْظُرُونَ ﴾ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خُلِدِينَ فِيهَا فَمَنْ مَتَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خُلِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. (75) ﴿ يعلق ابن الأثير على هذه الآيات وآيات أخرى معها، قائلاً: " تأمل هذه الآيات المضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله، وذكر النار والجنة، وانظر هل فيها لفظة إلا وهي سهلة مستعذبة على ما بها من الجزالة... وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم في كلا هذين الحالين من الجزالة والرقعة. " 1 ثم اشار ابن الأثير إلى أهمية اللفظ من خلال استعماله في النظم، حيث يتجلى ذلك التناسق والتشاكل والانسجام بين الألفاظ في علاقاتها فيما بينها.. وهو ما اشار إليه الجرجاني ضمن نظرية النظم التي عُرفَتْ به وعُرفَ بها، إذ يقول : إنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع، ثم تراها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر.. " 2

نخلص مما سبق إلى أنّ الخطاب القرآني معجز بما تميّز به في لفظه صرفاً وصوتاً وإيقاعاً ودلالةً وبلاغةً وفصاحةً .. وبما تميز به في نظمه بناءً وتركيباً ودلالةً وانسجاماً وتناسقاً وتناسباً مع السياق ومقامات الخطاب.. وهو ما لا نجده إلا في التعبير القرآني في دقته وبلوغ مقاصده..

وقد آثرنا أن نضمن ورقتنا هذه بعض النماذج التطبيقية من القرآن الكريم لما يقع من التشابه بين بعض الآيات على مستوى الألفاظ والتراكيب، وما أكثر النماذج فيه من هذا القبيل، مع الوقوف على الفروق الدلالية بينها وفقاً لتعدد سياقاتها، وما تتميز به من بلاغة قرآنية تدل على الإعجاز الذي يتجلى في هذا النمط الأسلوبى من أنماط التعبير القرآني..

تشابه لفظ (السلام) :

¹ ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، 186/1 - 187

² عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، 46

نجده في قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مریم: الآية 15]. وقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مریم: الآية 33]. فما هو الفرق بين الآيتين في تعريف لفظ (السلام) وتنكيره؟

ذكر الكرمانى في كتابه البرهان سبب تنكير لفظ (السلام) وتعريفه، من أنه " نكر في الأول وعرف في الثاني، لأن الأول من الله عز وجل والقليل منه كثير، وقليل منك يكفيني، ولكن قليلك لا يقال له قليل ولهذا قرأ الحسن ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي: نحن راضون منك بالقليل ومثل هذا في الشعر كثير. والثاني من عيسى عليه السلام، والألف واللام لاستغراق الجنس، ولو أدخل عليه التسعة والعشرين والفروع المستحسنة والمستقبحة لم يكن يبلغ عشر معشار سلام الله تعالى عليه.¹

كما أضاف قائلاً: (ويجوز أن يكون ذلك من وحي الله عز وجل عليه، فيقرب من سلام يحيى وقيل: إنما أدخل الألف واللام لأن النكرة إذا تكررت تعرفت وقيل: نكرة الجنس سواء، تقول: لا أشرب ماء ولا أشرب الماء فهما سواء².. ومعنى كلامه أن اللفظ (سلام) بالتنكير من الله عز وجل. واللفظ (السلام) بالتعريف من عيسى عليه السلام لأن الألف واللام لاستغراق الجنس.

أما أبو القاسم السهيلي فيرى أن الألف واللام في لفظ (السلام) تفيد عدة معان أهمها:

- التبرك باسم الله لأن (السلام) من أسماء الله الحسنى

- أن يقصد به طلب معنى السلامة منه.

- أن يقصد به عموم التحية منه سبحانه، ومن غيره (فسلام عليك) أي: سلام مني بمنزلة (السلام) في العموم³.

أما سر تنكير اللفظ في قوله تعالى: (وسلام عليه) يقول "...لأن المتكلم هنا هو الله تعالى فلم يقصد تبركا بذكر الاسم الذي هو السلام، ولا تعوضا وطلبا كما يقصده العبد، ولا عموما في التحية منه ومن غيره، لأن سلاماً منه سبحانه كافٍ عن كل سلام، ومُغْنٍ عن كل تحية ومُزِبٍ على كل أمنية، فلم يكن لذكر الألف واللام معنى ههنا.."

أما قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿السَّلَامُ عَلَيَّ﴾ في قصة عيسى عليه السلام، فإن للألف واللام معنى ومقصداً: (...لأن هذا العبد الصالح، أي: عيسى بن مريم. يحتاج كلامه إلى هذه الفوائد الثلاث، وأوكدها كلها العموم، لأنها مستحيل أن يقع سلامه على نفسه خاصة، ويبعد أيضا رغبته عن ذكر مولاه، وتركه التعرض لمعنى الاسم ومقتضاه:

نستنتج من تعليل السهيلي أن لفظ (سلام) بالتنكير هو من الله تعالى فنجده في الصافات: ﴿سَلَامٌ عَلَيَّ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ 79 ﴿سَلَامٌ عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ 109 ﴿سَلَامٌ عَلَيَّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ 130 ﴿وَسَلَامٌ عَلَيَّ

¹ الكرمانى، البرهان في متشابه القرآن، ص 259-260.

² المصدر نفسه: 260.

³ ينظر: أبو القاسم السهيلي، نتائج الفكر في النحو، ت. محمد البناء، دار الرياض 1404هـ.

الْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وكذلك في تحيته لأهل الجنة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: الآية 10]. ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ 34. ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: الآية 44]. أما لفظ (السلام) معرفاً فجاء في تسليم الأنبياء ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: الآية 47]¹ تشابه عبارة (السميع العليم):

نجد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: الآية 200]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: الآية 36]. فما هو الفرق بين الآيتين في تعريف وتنكير لفظ (السميع العليم)؟

يعلل الإسكافي سبب التعريف في سورة فصلت على ما تقدم من الآيات يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ 34.

فالحسنة لا تساوي السيئة والسيئة لا تساوي الحسنة. فما يشق على الإنسان فعله هو أن يدفع السيئة بالحسنة، وهذه لا تكون إلا لذوي الأخلاق الفاضلة، فلما كان هذا الأمر شاقاً قال: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ ثم ثبت ذلك بقوله ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أما آية الأعراف فقبلها قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ 199. فنجد فيها دفع إلى أحسن الأخلاق التي أمر بها الشرع². فملاحظ من تعليقه أنه ينظر إلى السياق المتقدم لآية.

وله تعليل آخر وهو أن التنكير ورد لمراعاة الفاصلة لأن قبلها من الفواصل أفعال جماعية أو أسماء مأخوذة من أفعال كقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وبعده ﴿يُخْلِقُونَ﴾ و﴿يُبْصِرُونَ﴾... والنكرة في الأسماء أقرب الألفاظ التي تؤدي معنى الفعل أما التعريف في آية فصلت فقبلها فواصل بها طريق الأسماء³. ونفهم من تعليقه الأول أن الإسكافي ينظر إلى توافق المعنوي أما تعليقه الثاني فينظر إلى اللفظي.

كما نجد ابن الزبير الغرناطي له نفس التعليل الذي يراعى السياق الآية المتقدم فيقول: "...والجواب: أن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من الحجارة والخشب التي وبخوا بعبادتها في قوله في موضع آخر: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾، فوضعت هنا بأنها لا تخلق شيئاً ولا يستطيعون لهم نصراً وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، فنفى عنهم القدرة والسمع والبصر وأله المشيء وأله البطش. في قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: الآية 195].

1 صالح عبد الله محمد الشترى، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسواره البلاغية، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، 2001/1421م، ص 232.

2 ينظر الإسكافي، درة التنزيل، ص 237-238.

3 المصدر نفسه، ص 102.

ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء فصلا عما فوق ذلك فوردت الصفتان بقوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ موردا لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبده من دونه مما قصد هنا ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدع فيستدعي ذلك التوهم مفهوما فجاء على ما يجب.

أما آية فصت قوله تعالى: ﴿فَرَزَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيَّنَّ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: الآية 25]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: الآية 29]. فحصل من هذا أن مضليهم إنما كانوا من عالم الإنس والجن وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر ومن ينسب إليه علم بخلاف المقدم ذكر في الأعراف فلما تقدم في سورة السجدة من يظن منه الغنى ويمكن منه أن يسمع ويبصر ويعلم ناسبه التعريف في الصفة ليعطي بالمفهوم نفي ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى ثم أكد ذلك بالضمير هذا المعنى مع إعطاء المفهوم إياه ولم يكن ورود ما في سورة الأعراف من التنكير ليناسب الوارد متقدما في سورة السجدة ولا التعريف الوارد في الصفتين العليتين في سورة السجدة ليناسب ما تقدم آية الأعراف فجاء كل على ما يناسب والله اعلم¹.

نستنتج من تفسير الغرناطي أن التعريف والتنكير مرتبط بغرض حدده السياق فالتعريف سياقه ارتبط بذكر أمة الجن والإنس فناسبها التعريف لحالهم. أما التنكير فارتبط بسياق الآلهة التي عبدت من دون الله فناسبها التنكير لعجزها. كما نستنتج أن تحليل الإسكافي لا يتنافى مع تحليل الغرناطي فالإسكافي ينظر الى السياق المتقدم لآية نقصد به توافق اللفظي ومعنوي. وعليه فالسياق والمقام يحددان تعريف أو تنكير المفردة القرآنية حسب الغرض الذي يراد في القرآن الكريم تأديته.

تشابه لفظ (المعروف):

نجد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: الآية 234]. كما نجد في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: الآية 240]. فما هو الفرق بين الآيتين في تعريف وتنكير لفظ (المعروف)؟

- نجد الخطيب الإسكافي يفسر سبب الاختلاف بين الآيتين فيقول: " أن الأول تعلق بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة/234] أي لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف هنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي شرعه وبعث عليه عباده، والثاني المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن، من تزوج أو

¹ الغرناطي، ملاك التأويل، 579/1-580.

قعود فالمعروف همنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه وهو بعض ما لهن أن يفعلنه ولهذا المعنى خص بلفظة (من) ونكر، فجاء المعروف في الأول معرفة لما أشرت إليه....¹.

والملاحظ من تعليل الإسكافي أن التعريف في الآية الأولى للعهد وهو ما أقره الشرع للمرأة من الزواج بعد انقضاء العدة. أما تنكير في الآية الثانية فأفاد العموم والتفصيل . وهي الأفعال التي يجوز للمرأة فعلها مما يقره المشرع. كما أضاف الكرمانى تعليلاً آخر إذ يقول: " إن النكرة إذا تكررت صارت معرفة، فإن قلت: يحذف يصح ما قلت والأول معرفة والثاني نكرة؟ وما ذهب إليه يقتضي هذا بدليل قوله سبحانه ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (15) [المزمل: الآيتان 15-16].

وهذه الآية بإجماع المفسرين مقدمة على الآية الأخرى في النزول، وإن وقعت في التلاوة متأخرة، ولهذا نظير في القرآن في موضع آخر، أو في موضعين، وأجمعوا أيضاً على أن هذه الآية منسوخة بتلك الآية، والمنسوخ سابق على الناسخ ضرورة، فصح ما ذكر في قوله: (بالمعروف)، وهو ما ذكر في قوله: (من معروف) فتأمل فيه فإن هذا دليل على إعجاز القرآن².

وأما آية ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ (15) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ ﴿ فتعريف (الرسول) فيها جاء بعد النكرة (رسولاً) فلما تكرر جاء معرفة، لأنه سبق تنكيهه، وهو ما يقتضيه السياق، لأن اللفظ انتقل من سياق التنكير باعتبار ذكره أول مرة، ثم نحول من سياق التنكير إلى سياق التعريف باعتبار إعادة ذكره.. فتحول من التنكير إلى التعريف تبعاً لتغير السياق..

تشابه لفظ (البلد) :

نجدها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: الآية 126]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: الآية 35]. فما هو الفرق بين الآيتين في تعريف وتنكير لفظ (البلد)؟

نجد للخطيب الإسكافي تعليلين في هذه المسألة : الأول قوله: " الدعوة الأولى- التي في سورة البقرة وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً، فكأنه قال: اجعل هذا الوادي بلداً آمناً، لأن الله تعالى حكى أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، بعد قوله: (اجعل هذا الوادي بلداً)، ووجه الكلام فيه تنكير الذي هو مفعول ثان، وهذا مفعول أول، والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً، فكأنه قال: اجعل هذا المكان الذي صيرته كما أردت ومصيرته كما سألت، ذا أمن على من أولى إليه، فيكون البلد على مذهب عطف بيان على مذهب

¹ الإسكافي ، درة التنزيل، ص29.

² الكرمانى، البرهان في متشابه القرآن، ص141..

سيبويه، وصفه على مذهب أبي العباس المبرد، وآمنا مفعولا ثانيا، فعرف حين عرف بالبلدية ونكر حيث كان مكانا من الأمكنة غير مشهورة بالتميز عنها بخصوصة من عمارة وسكنى...¹.

أما التعليل الثاني فهو قوله: "...والجواب الثاني أن تكون الدعوتان واقعتين بعدما صار المكان بلدا، وإنما طلب من الله أن يجعله آمنا... فيجوز- في آية البقرة- أن يكون المراد جعل هذا البلد بلدا آمنا، فتدعو له بالأمن بعدما صار بلدا... ويكون مثل قوله (اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا) وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله عنها في الموضوعين....²".

ويتضح من التعليل الأول للإسكافي أن الإشارة في آية البقرة كانت قبل الاستقرار، فاسم الإشارة (هذا) إشارة للمذكور في قوله تعالى: ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: الآية 37]. عندما ترك زوجته وابنه في الوادي قبل بناء مكة والبيت الحرام. وأما في آية إبراهيم فالإشارة إلى البلد بعد الاستقرار وبعد البناء. أما تعليله الثاني فتقدير آية البقرة: اجعل هذا البلد بلدا آمنا، فحذف البلد اكتفاء بالإشارة، وهذا ملائم للسياق.

كما نجد لابن الزبير الغرناطي تعليلا آخر يقول فيه: " ولو تعرف لفظ بلد بالألف واللام وجرى على اسم الإشارة لم يكن ليحوز بيانا على ما تحمل مما تقدم بل كان يكون كالتكرار، فورد الكلام على ما هو أحرز للإيجاز وأبلغ في المقصود، وأما آية سورة إبراهيم فلم يتقدم فيها ما يقوم لاسم الإشارة مقام التابع المعرف بجنس ما يشار إليه، فلم يكن بدمن إجراء البلد عليه تابعا له بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة.³"

يتضح من كلام الغرناطي أن اسم الإشارة في آية البقرة لم يقصد أن يكون له تابع يوضحه اكتفاء بالواقع قبله فهو يربط توجيهه بالسياق السابق للآية.

انطلاقا مما سبق يتضح لنا أن توجيه الغرناطي أدق لأنه ربط توجيهه بالسياق السابق للآية. كما يتبين لنا الغرض البلاغي من تعريف لفظ البلد وتنكيهه وهو ارتباط الدعاء بالبلد تعريفا وتنكيها. فالتنكير مرتبط بدعوة إبراهيم الأولى عندما أودع ابنه إسماعيل (عليهما السلام) عند البيت المحرم وكان البيت في مكان مقفر موحش، أما الدعوة الثانية فقد جاءت بعدما أصبح المكان عامرا بالناس. والله أعلم.

وهناك ظاهرة لفظية أخرى للتشابه اللفظي في القرآن الكريم، إذ الخطاب القرآني بعض المفردات التي فيها إبدال وإدغام، وتارة يترك الإبدال والإدغام، وكل ذلك له دلالاته ومقاصده، كما تتجلى فيه بلاغة التعبير القرآني.. فمن ذلك مثلا، قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ وفي آيات أخرى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ ونحو قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ القرآن ﴿ وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ ﴾ ونحو قوله: ﴿ يَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وقوله ﴿ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾، بل ربما جمع الصيغتين في آية واحدة، أو آيات متقاربة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾. ﴿ التوبة من الآية: 108، وأصل الإبدال هو الفك بالتاء، فـ (اذَّبَر) أصله

¹ الإسكافي، درة التنزيل، ص16.

² المصدر نفسه، ص16 وما بعدها.

³ الغرناطي، ملاك التأويل، 1/234-235.

(تدبّر) فأبدلت التاء دالاً وأدغمت في الدال ، فسكّنت الدال الأولى وجيء بهمزة الوصل توصلاً إلى النطق بالسّاكن. " 1. ومن هذه المتقابلات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم :

(يذكرون - يتذكرون) (يضرّعون - يتضرّعون) (المصدّقين - المتصدّقين) (يدبّروا - يتدبّروا) (يزكّي - يتزكّي) (المطهّرين - المتطهّرين) (اطّيرنا - تطيّرنا) (يخصمون - يختصمون) 2.

يرى السامرائي أنّ هناك حقيقتين لغويتين لا بدّ من ذكرهما في هذا الأمر :
الأولى: إنّ بناء (يتفعّل) أطول من بناء (يفعل) في النطق ، ف (يتدكّر) أطول من (يدكّر) بمقطع واحد، ف (يتدكّر) متكوّن من خمسة مقاطع : (يَ + تَ + ذَكَ + كَ + رُ) في حين أنّ (يدكّر) متكوّن من أربعة مقاطع (يَدُ + ذَكَ + كَ + رُ) 3.

والقرآن الكريم يستعمل بناء " يتفعّل " لما هو أطول زمنياً ، وقد يستعمله في مقام الإطالة والتفصيل 4. كما يؤتي بهذه الصيغة في اللّغة في الغالب للدلالة على التدرج التي يقتضي بدوره الاستمرار في الحدث، في حين يُكفَى في البناء الآخر بوقوع الحدث ولو في أدنى المراتب. 5.

والحقيقة اللّغوية الثانية تتمثّل في أنّ البناء (يفعّل) فيه تضعيف زائد على (يتفعّل) ففي (يفعّل) تضعيفان وفي (يتفعّل) تضعيف واحد ، وهذا التّضعيف الزائد يستعمله القرآن للمبالغة في الحدث والإكثار منه ، فتكرار الحرف في كتب اللّغة العربية إشارة إلى تكرار الحدث 6. جاء في الخصائص: " ومن ذلك أنّهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل فقالوا : كسّر وقطّع وفتح وغلّق " 7. ومن ذلك في غير الأفعال نونا التّوكيد الثّقيلة فإنّها أكد من الخفيفة. 8

ولنأخذ أمثلة من هذه النماذج التي تندرج ضمن المستوى الصرفي والمستوى الصوتي، حيث نجد كل ظاهرة جاءت في سياقها المناسب الذي يقتضيها، وفي هذا السياق ذاته تتجلى بلاغتها..

التشابه بين : يرتدّ و يرتدد :

جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ ﴾ البقرة ، الآية : 217 .

1 بلاغة الكلمة في القرآن ، ص 36 .

2 ينظر : دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم ، ص 182 .

3 بلاغة الكلمة في القرآن، ص 37 .

4 المرجع نفسه، ص 39 .

5 ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم ، ص 184 .

6 بلاغة الكلمة ، ص 39 .

7 ابن جني، الخصائص، ص 155 .

8 ينظر: بلاغة الكلمة ، ص 38 .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ المائدة من الآية:

54 . فقد وردت في آية البقرة بالفكّ (يرتد) وفي آية المائدة بالإدغام (يرتد) .

يعلّل السامرائي ذلك بأنه جاء بالفعل الثقيل وهو (يرتد) في الظرف الثقيل وهو الحرب والفتنة ، إذ وردت في سياق الآية كالتالي : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ ﴾ البقرة ، الآية : 216 .

فهذه الردّة بعد الفتنة والقتال، والموقف الثقيل الذي يوحي لفظه بالهزيمة والتكوص ، والرجوع إلى الوراء ، لأنّ فكّ الإدغام معناه الرجوع إلى المخرج بعد انتقاله عنه كما قرره علماء اللّغة ، فهو أشبه بالتراجع في الحرب ، والمرتدّ عن دينه بسبب الحرب والفتنة منهزمٌ ناكصٌ إلى الوراء ، فناسب بذلك بين اللّفظ والمقام¹ " والارتداد عن الدّين يتّخذ طريقتين : طريق السّرية والخفاء ، ويناسبها الإدغام لأنّه في حقيقته إخفاء للصّوت ، وطريق المجاهرة والإظهار ويناسبها الفكّ لأنّه في حقيقته إظهار للصّوت . "

أمّا في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴾ المائدة ، الآية : 53 . فالموقف هنا موقف عافية واختيار، ظرفٌ خفيفٌ يلائمه لفظ ومقام خفيفان² .

ويربط اللّفظين في الآيتين سياق الحال نجد تناسباً فنياً معجزاً ، إذ وردت " يرتد " في سياق الحديث عن المنافقين ، وسبقت بقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۗ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۗ ﴾ المائدة من الآية : 52 وهذا السّياق يناسبه الإدغام إشارة إلى أنّ الارتداد يتّخذ لدى المنافقين جانباً سرياً؛ في حين جاءت الصّيغة الثانية في سياق الحديث عن الكفّار وقتالهم للمسلمين ومحاولة ردّهم عن دينهم في نفس الآية³ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۗ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۗ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۗ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ البقرة ، الآية : 217 ، وهذا السّياق يتناسب مع فكّ الإدغام، لأنّه يعبر عن ارتداد الكفّار المتّسم بالمجاهرة وتوكّده صيغة الفعل يرتد⁴ .

ويعلّق البقاعي عن فكّ الإدغام في هذه الصّيغة بقوله: " وإجماع القرّاء على الفكّ هنا للإشارة إلى أنّ الحبوط مشروط بالكفر ظاهراً باللّسان وباطناً بالقلب، فهو مليح بالنعو عن نطق اللّسان مع طمأنينة القلب، وأشارت قراءة الإدغام في المائدة إلى أنّ الصّبر أرفع درجة من الإجابة باللّسان وإن كان القلب مطمئناً.⁵"

1 فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى ، ص 262 .

2 دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم ، ص 178 .

3 ينظر : الجملة العربية والمعنى ، ص 263 .

4 . ينظر: بلاغة الحفة والنقل في مفردات القرآن الكريم، ص 03.

5 . البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج 3/ص 232، 233.

التشابه بين المصدقين و المتصدقين :

ورد لفظ المتصدقين مرتين ، الأولى في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يوسف ، الآية : 88 .

والثانية في قوله تعالى : « ... وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » الأحزاب، الآية: 35، وورد لفظ (المصدقين) في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ الحديد ، الآية: 18.

فقال في آية يوسف (المتصدقين) وفي آية الأحزاب (المتصدقين والمتصدقات) غير أنه قال في آية الحديد (إنَّ المصدقين والمصدقات) بالإبدال والإدغام فناسب كلَّ تعبير موطنه.¹ ، ذلك أنَّ صيغة (المصدقين) في سورة الحديد قد حققت عدَّة دلالات، فهي تدلُّ على الإكثار من الصدقة ، وإخفائها والسرية فيها، وربما تدلُّ أيضا على لصوق هذه الصفة بهم حتى صاروا يُعرفون بها.² وهذا تناسبا مع سياق السورة الذي ورد فيه ذكر المبالغين في الصدقة وتكرَّر فيه ذكر الإنفاق والنهي عن البخل.

فقد قال سبحانه: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِۥ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ الحديد ، الآية : 07 ، وقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلْ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ الحديد ، الآية: 10، وقال تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ الحديد من الآية: 11، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ ﴾ الحديد من الآية: 18، " فلاحظ أنه تكرر ذكر التَّفَقَات مع المفاضلة بينها من حيث السَّبق وحاجة المتصدق لها ومضاعفة أجرها عند الله تعالى ، وهذا يقتضي ذكر صيغة المفاضلة أو المبالغة.³

في حين لم يرد ذكر الإنفاق والصدقات في سورة الأحزاب على طولها وهي ثلاث وسبعون آية، عدا ما ورد في هذه الآية التي جمعت عددًا من صفات أهل الإيمان ، وقوله سبحانه وتعالى مخاطبًا نساء النبي "صلى الله عليه وسلم" ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنِ الزَّكَاةَ ﴾ الأحزاب من الآية: 33، فجاءت الصيغة لتشمل عموم أصحاب التَّفَقَة⁴ أما في آية يوسف، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ ولم يقل (المصدقين) لأكثر من سبب، منها أنه مناسب لقوله: « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » ومنها أنهم طلبوا التَّصَدُّق ولم يطلبوا المبالغة في الصدقة، وذلك من حسن أدبهم، ومنها

1 ينظر: بلاغة الكلمة، ص 40.

2 دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، ص 187.

3 ينظر: بلاغة الحفة والثقل، ص 6 .

4 بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص 40.

أنّه لو قال: (إنَّ الله يجزي المصدِّقين) لأفاد بذلك أنّ الله يجزي المبالغين في الصدقة دون من لم يبالي، وهذا غير مراد، لأنّ الله يجزي على القليل والكثير¹.

التشابه بين الذكر والحذف :

إثبات حرف من كلمة قرآنية في موضع أو حذفه في آخر، أو تغيير حركته ليس بالأمر الاعتيادي، إنّما هو أمر مقصود، ينطوي على حكم باهرة . فقد يحذف في التعبير القرآني من الكلمة نحو: (استطاعوا واسطاعوا) و(تنزل وتنزل) ، (توفاهم وتوفاهم)، (لم يكن ولم يك) ، وكل ذلك لغرض وليس اعتباطا ، فالحذف في القرآن مقصود ، كما أن عدم الحذف مقصود ، ومن القيم البيانية على سبيل المثال :

1. عدم اكتمال الحدث وقصر زمنه ، مقارنة مع ما لم يحذف منه .

2. التناسب مع مقام الایجاز والاختصار ، وفي المقابل يحافظ على اللفظ بأوفى صورة في مقام الاطالة والتفصيل.² " وما يدل على أن القرآن الكريم لا يستعمل الحذف لمجرد الاقتصاد في الجهد العضلي إبقاؤه على نون كان المجزومة مع امكان الحذف في سبعة وخمسين موطنًا ، وحذفها سبع عشرة مرة فقط. " ³

من أمثلتها قوله تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ لقمان من الآية : 16. فقد حذف النون لأنه في الأول لم يعين مكانها ، فهي أبعد في الوجود ، أي : هباءة تائهة لا مكان لها ، ولم يحذف لما عين مكانها بقوله (في صخرة) ⁴.

ومن دلالات حذف النون التنبيه على صغر مبدأ الشيء وحقارته ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَعًى ﴾ القيامة من الآية : 37 ، فقد حذفت النون تنبيها على مبتدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه ثم يترقى في أطوار التكوين ⁵. هذا الانسان الذي كرمه الله سبحانه وتعالى، فقد تكون هذه دعوة للتفكير والتدبر في خلقه.

كما يمكن للحذف أن يكون دلالة على عدم قدرة المتكلم على إتمام الكلام بسبب الضعف أو الرغبة عن الحديث ، نحو قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ .. ﴾ المدثر من الآية : 43 – 44 . أو ربما يحقق الحذف النهي عن حدوث الفعل بالكلية بحيث لا يحصل منه شيء ⁶ ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ النحل من الآية : 127 ، وقوله في سورة النمل : ﴿ وَلَا

1 المرجع نفسه، ص 40.

2 ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، ص 7 ، وكذلك: بلاغة الخفة والتقل في مفردات القرآن الكريم ، ص 09 .

3 فاضل صالح السامرائي ، معاني النحو، شركة العاتك ، القاهرة ، مصر ، ط 2 ، 2003 م ، ص 209 .

4 ينظر المرجع نفسه، ص 213 .

5 الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، ص 407 ، 408 ، وينظر : معاني النحو: ص 210 .

6 ينظر : فاضل السامرائي، معاني النحو، ص 211 .

تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿ النمل من الآية : 70 ، فحذف نون (تكن) في آية النحل وأبقاها في آية النمل ، ذلك أن السياق مختلف في السورتين .

ذكر الزمخشري وابن كثير في تفسيريهما " إن الآية الأولى نزلت حين مثل المشركون بالمسلمين يوم أحد ... بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة وقد مثل به ، فرآه مبقور البطن ، فقال : « أما والذي أحلف به لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك " فنزل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۖ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ النحل من الآية : 126 إلى الآية : 128 ، فكفر عن يمينه وكف عما أَرَادَهُ. " ¹

أراد الله سبحانه وتعالى نزع الضيق من النفس أصلا وتطيب مناسب نتيجة نخامة الامر وبالغ الحزن ، وتخفيفا وتهوينا على المخاطب ، فحقق الفعل بالحذف إشارة إلى تخفيف الامر وتهوينه على النفس. ²

جاء في البرهان للكرماني " أما خصت سورة النحل بحذف النون موافقة لما قبلها وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ۖ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل من الآية : 120 ، والثاني : أن هذه الآية نزلت تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم حين قتل عمه حمزة ومثل به ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لأفعلن بهم ولأصنعن » فأنزل الله ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ ... ﴾ ليكون ذلك مبالغة في التسلي ، وجاء في النمل على القياس لان الحزن هناك دون الحزن هنا، والله أعلم. " ³

وقد يكون الحذف مناسباً لمقام الحياء ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ مريم من الآية : 20 ، ذلك انها لا تريد أن تبتسط في الحديث مع رجل غريب في خلوة ⁴ ؛ أو ربما هو نفي تام عن حدوث الفعل " البغي. "

ومن أمثلة الحذف كذلك (أَنَا - إِنَّا) ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران من الآية : 52 .

وقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ المائدة من الآية : 111. حذف النون من (أنا) في آية آل عمران وثبتت في آية المائدة ، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أوحى للحواريين وثبتهم فوردت النون في مقام التأكيد ولم يرد مثل ذلك في آية آل عمران ⁵.

يذكر السامرائي نقلاً عن " ملاك التأويل " ان آية المائدة لما ورد فيها من التفضيل فيما يجب الايمان به في قوله تعالى : (أن آمنوا بي وبرسولي) فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأوفاهما ، ناسب ذلك (أننا) على أوفى

1 الكشاف ، 2 / ص 222 ، تفسير ابن كثير 2 / 592 ، التعبير القرآني ، ص 77 .

2 ينظر : التعبير القرآني ، ص 77 .

3 البرهان : 281 - 283 .

4 ينظر معاني النحو، ص 212 .

5 ينظر : معاني النحو، ص 388 ، والتعبير القرآني ، ص 76 .

الحالين وهو الورد على الأصل ولما لم يقع افصح بهذا التفضيل في سورة آل عمران حين قال تعالى (قال الحواريون نحن انصار الله أئنا بالله) فلم يقع هنا (وبرسوله) ايجازا للعلم به وشهادة السياق ، ناسب هذا الايجاز ، كما ناسب الاتمام في آية المائة الاتمام ، فليل هنا (واشهد أنا مسلمون) وجاء كل على ما يجب ، ولو قدر ورود العكس لما ناسب. " 1

ومن صور الحذف التي وردت في القرآن الكريم ، حذف تاء المضارعة في (تنزل - تنزل) نحو قوله تعالى : ﴿ تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ القدر من الآية : 04 ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴾ الشعراء من الآية : 221 - 222 ، فحذفت احدى التاءين في حين قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فصلت من الآية : 30 .

إن ورود (تنزل) بدون حذف في هذه الآية الأخيرة يعود لأن التنزل فيها أكثر منه في الآيات الأخرى ، وذلك لان الملائكة تنزل في كل لحظة وحين لتبشر المؤمنين عند الموت بالجنة ، أما آية الشعراء ، فإن التنزل فيها أقل لان الشياطين تنزل على الكهنة أو على قسم منهم فقط ، وهم الموصوفون بقوله : " كل آفاك أثيم يلقون السمع » فاقتطع من الفعل إشارة إلى أنهم قيلة. " 2

وكذلك الحال في سورة القدر " فإن تنزل الملائكة في ليلة واحدة في العالم وهي ليلة القدر ، هو أقل من التنزل الذي يحدث باستمرار على من يحضره الموت ، فحذف من اللفظ إشارة الى الاقتطاع من الحديث. " 3

ومنه أيضا (توفاهم - تتوفاهم) ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ النساء من الآية : 97 ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. ﴾ النحل من الآية : 28 ، فحذفت التاء من آية النساء ، لأن المتوفين فيها هم جزء من المذكورين في النحل ، أي الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين على وجه العموم ، اما في النساء ففئة مستضعفه منهم ، لذلك حذف من الفعل الذي يمثل القلة إشارة إلى الاقتطاع من الحدث وإلى قلة بالنسبة للآخرين. 4

وتتنوع مظاهر الحذف في القرآن الكريم، من ذلك حذف التاء من (استفعل) في الماضي والمضارع، نحو(اسطاع - أستطاع) في قوله تعالى: ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ الكهف من الآية: 82، فقد حذفت التاء تخفيفاً للفظ من الفعلين: (اسطاعوا) و(تسطع) لاشتراك التاء والطاء في مخرج واحد. 5

1 التعبير القرآني ، ص 76 .

2 ينظر : بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، ص 10 .

3 المرجع نفسه، ص 11 .

4 ينظر المرجع السابق ، ص 11 .

5 . ينظر: الأخفش سعيد بن مسعدة ، معاني القرآن، دراسة وتحقيق: عبد القادر محمد أمين الورد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص 525.

وقرب بعضهم السين من الطاء بعد الحذف ففخمها، فصار اللفظ (تصطع) وقرأ به أحمد بن صالح عن ورش وقالون عن نافع¹.

يقول ابن كثير موضحاً ومفسراً: " ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: (تصطع)، وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً، فقال: سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً، فقابل الأثقل بالأثقل والأخف، كما قال: فما استطاعوا أن يظهره وهو الصعود إلى أعلاه، وما استطاعوا له نقباً، وهو أشق من ذلك، فقال كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى. " ²

ويفسر السامرائي ذلك بقوله: " الصعود على هذا السد - الذي صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنحاس والمذاب - أيسر من إحداث ثقب فيه لمرور الجيش، فحذف من الحدث الخفيف، فقال: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾. بخلاف الفعل الشاق الطويل، فإنه لم يحذف، بل أعطاه أطول صيغة له، فقال: " وما استطاعوا له نقباً " ثم إنه لما كان الصعود السد يتطلب زمناً أقصر من إحداث النقب فيه، حذف من الفعل وقصر منه ليجانس النطق الزمن الذي يتطلبه كل حدث³، كما ناسب حذف التاء من اللفظ جفه المتسلق، لأن تسلق جدار السد العالي الأملس الخالي من النتوءات والمقابض، يحتاج إلى خفة ورشاقة ومهارة، فتخفف اللفظ من أحد أصواته كما يتخفف المتسلق من بعض أحماله، وهذا عكس ما يعانیه الذي يحدثه النقب من أثقال مادية ونفسية وزمانية، تتناسب مع ثقل اللفظ بلا حذف. "

وقد قيل: الزيادة في المعنى زيادة في المبني، فحين بنى ذو القرنين السد على يأجوج ومأجوج، كي يمنع فسادهم، أراد هؤلاء الخروج فحاولوا تسلق السد فما (استطاعوا) وما أفلحوا، ثم حاولوا نقبه وتخريبه فما (استطاعوا) كذلك، فبدأ الفعل سهلاً خفيفاً، ثم أصبح شاقاً عسيراً لزيادة التاء فيه.

إنّ ظاهرة التشابه اللفظي من أبرز الظواهر التي تتجلى فيها صفة الإعجاز، إذ تبدو بعض الألفاظ متقاربة في بنيتها الصرفية وتشاكلها الصوتي لكن بينها من الفروق ما يبيّن أنّ لكل منها دلالة التي تميزه عن غيره، وهو ما يدل على بلاغة التعبير القرآني تناسباً مع مختلف السياقات، بحيث نجد الدقة في اختيار الألفاظ وفي تعالقيها فيما بينها، في نظم عجيب يتميز بالاتساق والانسجام الذي لا يوجد إلاّ في القرآن الكريم، وهذا أحد وجوه الإعجاز وهو من بلاغة الخطاب القرآني..

1 . عبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات، دراسة سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2002م، ص288.

2 . ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، تحقيق: مصطفى السيد محمد ومحمد السيد رشاد وآخرون، مؤسسة قرطبة للطبع والنشر والتوزيع، الجيزة، مصر، ط1، 2000م، ص 181.

3 . ينظر: بلاغة الكلمة، ص 9.